ثانياً

كن معلّماً متكاملاً

«في نهاية كلّ حصة دراسية، يحدونا الأمل جميعاً أنها سوف تساعد الطلاب على أن يصبحوا، ولو قليلاً، أشخاصاً مختلفين بطريقة ما. هذا الأمل يتعدى مسألة مادة الحصة، أو خلفية الطالب، أو حتى ما إذا كان طالباً ذكيّاً في المرحلة الثانوية أو على وشك دخول الجامعة.»

ريتشارد لايت Richard J. Light [1]

يتطلب الالتحاق بمهنة التعليم قدراً كبيراً من الأمل، ويتطلب معلماً كي يدرِّس طالباً متكاملاً. نحن ندرِّس كي نحوّل عبر كوننا معلمين متكاملين. وقد عرضنا فيما سبق التباين بين التعليمين: المعلوماتي والتحويلي؛ فالتعليم المعلوماتيّ يعني أنّ المعلم هو المصدر الوحيد للمعرفة، وأنّه يمتلكها كلّها، وأنّ الطلاب أوعية فارغة يجب ملؤها. أما التعليم التحويلي فيتضمن إحداث تغير جذري بين أفراد مجتمع التعلُّم. دعونا نستكشف بتفصيل أكبر ما يبدو عليه التعليم التحويلي عمليّاً. بعدئذ، سنصف الأدوار التي يقوم بها المعلم التحويلي.

في التعليم، غالباً ما يُستبدَل الأمل بالفعالية الذاتية، أي اعتقاد داخل المتعلمين أنهم سيكونون ناجحين بطرائق محددة. يُعدُّ الأمل مهارة حياتية تحتل المجال الروحاني للتعليم. إنه جزء أساسي من التمني بقدرة الطلاب كلّهم على التعلّم والنجاح. إنّ التدريس مع الأمل يتضمن الإيمان، أي الإيمان

(1) أستاذ جامعي ومؤلف تربوي.

الحقيقي بقدرات كلّ طالب، ونقل هذا الإيمان إلى الطالب نفسه. إنّ وصف (مفعم بالأمل) يطلق على المعلمين التحويليين المتحمسين الذين يؤمنون بأن عالم التربية يتجاوز ثقافة المعلومات. إضافة إلى أنّ التعليم المثمر يتطلب التزاماً كاملاً بالأدوار جميعها التي تؤثر في التعلُّم. ويمكننا جميعاً بصفتنا معلمين استخدام ما يذكرنا بهذه الأدوار.

المقدس (الروحانيّ) والدنيويّ

يعدّ وجود الأهداف الروحانية في غرفة الصف جزءاً لا يتجزأ من نموذجنا التحويلي والشمولي. ومع أنّ هذه الفكرة قد تبدو غير مجدية، أو حتى غريبة، لكثيرين ممن يقرؤون هذا الكتاب، ومع أنّ المشككين ربما يقولون: ألا تعلمون أن مدارسنا الحكومية تعاني أزمة تحصيل؟ و: كيف يمكننا حتى أن نتصور هذه الفكرة في المدارس الحكومية الأمريكية؟ فإننا نحثكم على متابعة القراءة.

وجوابنا للرّدّ على هؤلاء المشككين هو أنّ عالم التربية والتعلم والتعليم يشبه كلّ محاولة بشرية أخرى بطريقة واحدة في الأقل. ففي كلّ: يوم، وأسبوع، وشهر، وعام، نواجه أزماتنا الروحانية لأننا بشر. نحن نؤكد أنّ التدريس لا يشبه أيّ مهنة أخرى في كثافته، واتساعه، وعمقه، وأهميته القصوى. فلماذا إذاً، نقصُر تدريسنا على العالم المجزأ لنتائج الاختبارات؟ ولاسيّما أنّ التدريس الفاعل يتجاوز التحصيل الدراسي والدرجات بكثير. وبدلاً من ذلك، يتعيّن علينا أن نتساءل: لِمَ نضع حدوداً لتعليم طلابنا؟

لاستكشاف التعليم التحويلي، سوف نتحول إلى نقيض هذا التعلم الذي يمكنه بسهولة أن يعالج مخاوف أيّ شخص مهتم بتعليم يخاطب الروح البشرية: أي الذي يوجد التوتر الحيوي بين الدنيوي والمقدس في التعليم. وقد توصل باري هارفي (1999) Barry Harvey إلى نتيجة مهمة في أثناء دراسته

للجـذر اللاتيني لكلمة دنيوي. فعلى الرغم مـن المفاهيم الشائعة لكلمة دنيوي بأنهـا تتعلق بالدنيا أكثر من الـرّوح، أو الشر بدلاً من الخير، اكتشف هارفي أنّ معناهـا ليس نقيضاً لكلمة مقدس، وأنّ جذرها له علاقة بالمادة مقابل السمو، أو تحديداً بانقضاء الزمن مقابل السرمدية.

وبنـاءً على ذلك، يجب ألاّ ينظر إلـى التفكير الدنيوي بأنه نقيض للتفكير المقدس، بـل إنّ الدنيـوي والمقدس يمكـن أن يكونـا في الحقيقـة متكاملين بصـورة غريبـة. ويمكننـا أن نـرى المفهوميـن متداخليـن علـى مخطـط فن (Venn diagram) [1] . إنـه تداخل لطريقتين مختلفتين في رؤية العالم. يؤكد الذيـن يؤيدون الأهـداف المقدسة أو الروحانية القيـم السامية، أي الإحساس بالسرمديـة فـي منحـى التعامـل مـع الحيـاة. فـي المقابـل، نـرى الدنيويين أو العلمانييـن مشدوديـن إلـى هـذا العالـم بزمانـه، ومكانـه، ومادتـه. ولكن مـاذا نفعـل بالتداخل نفسه؟ لِـمَ علينا نحـن المعلمين أن نهتـم بذلك؟ لماذا يجـب علـى المدارس العامة أن تهتـم بما يبـدو مفهوماً خارج نطـاق الطبيعة (ميتافيزيقيّاً)؟

يمكن النظر إلـى تداخل منطقة (فن) المخصوصـة بالمقدس والدنيوي بوصفها أهم شيء في حياتنا؛ لأنها توجد حيث نجد الهدف، وهو الشغف للخدمة. وفي الواقع، نحن نجزم بأن أعظم المعلمين التحويليين يتداخلون أو يتحدون بقوة كبيرة لدرجة أنّ الدوائر تصبـح دائرة واحدة. فكروا في سقراط، وميلانكتون، وكومينيوس، وبستالوتزي، وبوكـر تي. واشنطون، وماري بثيـون، ومونتيسوري، ومعلمـي اليوم، ومنهم جيمي إسكالانته ورافـي إسكويث. لقد وُجدوا في العالم، ولكنهـم تجاوزوا عالمهم؛ لقد خدمـوا جميعاً غايات أسمى في أثناء كدحهم في

(1) مخطط فن: وسيلة وضعها John Venn (1834–1923)؛ للمساعدة على حلّ المشكلات في بحوث السوق، في العلم، في العلوم الاجتماعية ... إلخ، حيث تُجمع المعلومات المتداخلة في كثير من الأحيان، وتُصنّف.

مجتمعات دنيوية لديها مشكلات واقعية كثيرة. ونحن نؤمن بأن المعلمين العظماء يدركون أنّ الأمور المقدسة يجب ألا تتداخل فحسب، بل تتحد مع الظلام الدنيوي، فتنيره فعلياً.

إنّ المعلمين مطالبون بتحقيق الأهداف الروحانية في حياة طلابهم. ما الذي يعنيه هذا؟ من المؤكد أنّ الشعور بالمقدس يتضمن الاهتمام بالعلاقات بين المعلمين والطلاب، وبين المعلمين أنفسهم والمدارس وأولياء الأمور. وقد كتب ريتشارد ويسبورد (2009) Richard Weissbourd أنّ كثيراً من المدارس قد استثمرت في برامج لبناء الشخصية صممت لتعليم القيم؛ وتشمل الانضباط، وضبط النفس، والمسؤولية، والإنصاف. إضافة إلى أنه يحدّد أيضاً حقيقة مقنعة جداً، وهي: على الرغم من نيَّاتها الحسنة، فإن المدارس لم تنجح بهذه البرامج في التأثير إيجابياً في القدرات الأخلاقية للطلاب. ويستنتج ويسبورد أنّ من يفشل في تعليم القيم أو المسؤولية الاجتماعية التي تغير الحياة إيجابياً ليس المعلمين أو المدارس؛ بل طبيعة العلاقات التي تنشئها المدارس (ص. 28). ولهذا، يشدِّد نموذج أسلوب التدريس التحويلي على العلاقات بين المعلمين والطلاب، وهذه العلاقة التعليمية التحويلية تؤثر في الطلاب أكاديمياً واجتماعياً وروحانياً.

إنّ العلاقة بين المعلم والطالب يمكن أن تكون حاضنة لتنمية حسّ بالمقدس في الحياة الدنيا. وتتبنى مبادرةُ الطفل المتكامل التي ترعاها رابطة مراقبة المناهج الدراسية وتطويرها the Association for Supervision and Curriculum Development (ASCD) مبدأَ عدم كفاية تدريس المواد الأساسية لتحقيق الأهداف الأكاديمية؛ لأنّه لا يكفي لتعليم الطلاب تحقيق نجاح يستمر مدى الحياة. هذه المبادرة تدعو إلى خمسة أسس في نهجها لتطوير طلاب؛ أصحاء، وآمنين، ومشاركين، ومدعومين، وقادرين على التحدي. إنه أسلوب

شمولي لتعليمٍ يتبنى المنحى الأكاديمي، ويتعداه في الوقت نفسه إلى احتياجات الطالب المتكامل.

على سبيل المثال، يحدّد دي مارتينو وكلارك (2008) J. DiMartino & J.H. Clerk مناطق عدة للمشكلة بالنسبة إلى المدارس الثانوية تشمل الأسس الخمسة جميعها المخصوصة بالطفل المتكامل. ومن ذلك ثلاث مناطق تحديداً هي: الافتقار إلى دعم البالغين، والتجاهل، والعزلة التي تبدأ المدارس الثانوية منها بخذلان طلابها. يتحدّد الافتقار إلى دعم البالغين، عندما يتحدث الطلاب إلى أقرانهم فقط بسبب عدم وجود أيّ بديل آخر. أما التجاهل، فيعني أنّ الطلاب يشعرون بأنّ أحداً لا يراهم، ولكنهم يتوقون إلى اهتمام خاص خارج مجموعة أصدقائهم الصغيرة. وأخيراً، تحدث العزلة عندما لا يهيئ المعلمون لطلابهم فرصاً للمشاركة في المجتمع الأكبر خارج المدرسة الثانوية. ولذلك، فإنّ السعي الجادّ إلى تلبية الاحتياجات الاجتماعية والأكاديمية والعاطفية والروحانية للطلاب يمكن أن يصل إلى الطلاب، وهم في عوالمهم الحقيقية.

نحن نعيش العالم الدنيوي كلّ يوم؛ بصوره، وأصواته، ونجاحات الإنسان فيه وإخفاقاته. وربما كان المعلمون يعيشونه، كما لا يعيشه ممتهنو أيّ مهنة أخرى. وهم مطالَبون بصورة متزايدة بتغيير حياة الطلاب في الوقت الذي فشلت فيه مؤسسات أخرى، كالعائلة، ودور العبادة، والحكومة، أو تراجعت، أو أساءت فهم ماهية التعلُّم. إنّ المعلمين الذين يلتقون الطلاب الساعة الثامنة صباحاً في بداية الأسبوع الدراسي يرون القلق والتوتر على وجوه طلابهم، وهم أنفسهم يعانون الضغط المصاحب لمطلب تحسين نتائج الاختبارات. ومع ذلك، فإن أفضل المعلمين ما زالوا شديدي الرغبة في تعليم الطفل المتكامل. فما الميزات المطلوبة للقيام بذلك؟

اعرف نفسك

المعلمون التحويليّون يعرفون أنفسهم بعدما حدّدوا نقاط قوتهم وصفاتهم الشخصية، وبعدما تأملوا في أكثر الأشياء أهمية بالنسبة إليهم، وحلّلوا، أيضاً، أكان أسلوب تدريسهم يعكس جوهر قيمهم أم لا؟ مثلاً، إذا كان الصبر والتعاطف مُعتقدَيْن جوهريَّيْن للمعلمين، فهل يتعاملون بمساواة مع الطلاب جميعهم، حتى مع أولئك الذين غالباً ما يمثلون تحدياً لهم؟ المعلمون التحويليّون يتأملون في تفاعلاتهم اليومية مع الطلاب، ويتكيفون للحفاظ على علاقات سليمة معهم، كما نستشف من الحالة الآتية:

جوين دولين كانت الأصغر بين ثلاث بنات، وكانت تعدّ أقلهن قدرة. كانت معلماتها قد صَنَّفْنَها على نحو غير رسمي أنها تعاني صعوبة تعلم شديدة. عندما وصلت جوين إلى الصف السادس، رفضت معلمتها الجديدة؛ شيريل الاعتراف بهذه الصعوبة، وبدأت تعلّم الطالبة وفقاً لمنهاج موضوعي يشدِّد على أساليب تعلم بصرية، وحسّ- حركيّة. ومع نهاية العام الدراسي، أظهرت جوين دولين إتقانا يصل إلى 87% من المنهاج الكلي.

ويظهر هذا المثال أنّ مفهوم المساواة لا يعني معاملة متساوية، بل يعني استيعاب الطلاب وتحديهم تبعاً لاحتياجاتهم. كان التقدم الأكاديمي لهذه الطالبة معاناة صعبة، وقد لجأت المعلمة إلى الصبر والتعاطف للأخذ بيدها؛ كي تتغلب على تلك الوصمة. بهذه الطريقة التكميلية، تؤثر القيم الخالدة في واقعنا الدنيوي.

لا شكّ في أنّ بذلَ المجهود ليكون المرء شمولياً في التعليم أمرٌ ذو أهمية كبرى. إنّ الاهتمام بالجانب الأكاديمي فقط يستثني الأهداف الاجتماعية أو الروحانية، وهو ما يحجب، على نطاق أوسع، النموذج الفكري المتمحور على الطالب لمصلحة فلسفة محورها المادة الدراسية. ومن الملاحظ أنّ المعلمين

الجـدد الذيـن يخوضون خبراتهم الأولى فـي جوّ تسوده المساءلـة يبدون أكثر استعداداً لتقبل واقع تدريس الموضوعات الأساسية الجوهرية، ليس لأنه مقبول فحسـب، بـل كافٍ أيضـاً. وهذا يعنـي على حدّ وصـف عالِم النفـس الأمريكي بـي. إف. سكنـر B.F. Skinner أنهـم (دُجِّنـوا) عندما تعلمـوا مهنتهم، حيث إنّ النواحـي الأكاديمية المخصوصة بتدريس المهـارات الأساسية في القراءة والرياضيات تتفوق على رغبتهم الأولية والمثالية في تعليم الطفل المتكامل.

من الشائع أن تسمع المعلمين الجدد، كما المعلمين المتمرسين، يعرِّفون أنفسهـم بالإشـارة إلى سجلهـم الخاص المليء بدرجات التحصيـل العالية. وفـي هـذه الحالة، فإننا نصبح مثل الضفادع التـي تُسْلَقُ في ماء ترتفع حرارته تدريجيّاً، فبدلاً مـن القفز خارجاً والتدريس من أجل تحويل المتعلم المتكامل، نجد أنفسنا نساير ثقافة تربوية يجب أن تكون مرفوضة من أساسها.

النوعية، لا الكمية

«خلص بعض المربين إلى نتيجة مفادها أنهم كلّما أمضوا وقتاً أطول في تدريس المحتوى، زاد تعلّم طلابهم. وقد دعا جاكسون (2009) R.R. Jackson إلى تغيير هذا النمط من التفكير؛ لإيمانه بأن على المعلمين إعطـاء الأولوية في وقتهم للجودة وليس للكمية. ومشيراً إلى أنّ المعلمين الماهرين يمضون في التحضير وقتاً أطـول من التدريس، وفي طـرح الأسئلة على الطـلاب لا احتكار الكلام لأنفسهم» (ص.156) .

إنّ التدريس الواعي الذي يهدف إلى إحداث تغيير في حياة الطلاب هو ما يطرحه هذا الكتاب. إنه التدريس من أجل التحويل الذي لا يتضمن فقط وجهة نظر تكاملية للمعلم، بل أيضاً فهماً عميقاً للطالب. وسوف نناقش الآن ميزات المعلم التحويلي.

المعلم التحويلي

تدرّس جاكلين صفّاً دراسيّاً في روضة الأطفال، فيه ستة وعشرون طفلاً، من ضمنهم أماندا، البالغة من العمر خمسة أعوام، التي تعدّ تحدّياً كبيراً. في الواقع، أماندا ليست طفلة من الناحية الوجدانية؛ لأنها الأكبر سنّاً بين ستة أطفال لأم تبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً. عرفت جاكلين أنّ عليها مواجهة مشكلة: أماندا تسعى إلى السيطرة على الأطفال الآخرين، إضافة إلى معلمتها، باستخدام العناد القوي الذي اكتسبته في المنزل. يوماً ما، اصطحبت جاكلين الأطفال في نزهة على الأقدام خارج الصف ضمن حدود المدرسة، وتعمدت أن تمشي مع أماندا. استطاعت جاكلين من خلال مجرد السير والحديث معاً، واستخدام ما تدعوه جلوريا لادسون- بيلينجز (Gloria Ladson–Billings, 2006, p.31) (التعاطف الواعي)، أن تقيم مع أماندا علاقة جديدة مبنية على الاحترام المتبادل.

التعاطف الواعي عمليّاً

يتضمن التعاطف تبنّي طريقة تفكير شخص آخر، وهو ما يمكن أن يكون صعباً على إنسان بالغ يتعامل مع الأطفال؛ إذ يبدو الدخول إلى المشهد الفكري أو العاطفي للطفل أو المراهق بعيد الاحتمال في أحسن الحالات، ومستحيلاً في أسوئها. لكن هذه المهمة لا تبدو كبيرة جدّاً، بالنسبة إلى المعلمين المستعدين للاستماع بحساسية وفهم ثقافي، فحينما يكون التعاطف مبنيّاً على الاطلاع، يستخدم المعلم فهماً مستنداً إلى معرفة التطور البشري ومعرفة ثقافة الطالب. إنه اهتمام منظم للوصول إلى توقعات كبيرة.

في نموذج أسلوب التدريس التحويلي، نحن ندرّس؛ كي نحوّل. ويكون الطلاب هم الهدف المقصود بالتحويل. وإذا ما سمح المعلمون لأنفسهم بأن يكونوا مشتركين في التعلُّم مع طلابهم، فإنهم سيتغيرون أيضاً من خلال

علاقة؛ الطالب – المعلم. ولإحداث تغيير، يجب أن تتآزر الأهداف الأكاديمية والاجتماعية والروحانية. ولما كان الطلاب محور اهتمامنا، فإنّ صفاتهم واحتياجاتهم تستحق التأمل (انظر الفصل الثالث) . لكن المعلمين؛ أدوات التغيير، يحتاجون أيضاً إلى تحليل ووصف. فما الصفات التي يتمتع بها المعلمون التحويليون؟ إنّ وصف هذه الصفات يتطلب مناقشة أهداف التعليم.

لماذا ندرّس؟

يتطلب التواصل مع الطلاب تحديداً واعياً للأهداف، ومن المهم المحافظة على التمييز بين ما ندّرسه وكيفية تدريسه، حتى ونحن ندرك الصلة الوثيقة بين المعرفة وأساليب التدريس. ومع ذلك، يبدو أننا في حاجة إلى عضو خيالي ثالث لتكوين ثالوث تعليم يشدِّد أكثر على مَن نُعلِّم. وعليه، فإن مَن نُعلِّم هي نفسها لماذا نُعلِّم!

يدرّس أنتوني مبحث الرياضيات للمراحل الثانوية في ضاحية تقع على الساحل الغربي للولايات المتحدة. بالنسبة إليه، كان التعليم يتعلق دوماً بالموضوع، والهرمية، والمفاهيم، واللوجاريتمات ذات العلاقة بالرياضيات. درّس أنتوني الرياضيات في الجامعة بأنه تخصّص رئيس، والتعليم بصفته تخصصاً فرعياً. إلى حدّ معين، يعرف أنتوني عن التنمية البشرية والفهم الثقافي؛ لأنه درّس تلك المباحث. ومع ذلك، فهو يعتقد أنّ النجاح في مجال المحتوى الدراسي بالنسبة إلى طلابه كفيل بالتغلب على أيّ (مشكلات تنشئة) قد يواجهونها. إضافة إلى ذلك، وكما يقول، فإنّ تنشئة الأطفال هي مهمة معلمي المرحلة الابتدائية. لذا، ينصب اهتمامه على التحصيل. فأين الخطأ في هذا المنحى؟

نحن نعتقد أنّ منحى أنتوني قد يكون قصير النظر في أحسن الأحوال، ومتبلد الشعور على نحو مأساوي في أسوئها. المعلمون التحويليون متكاملون؛ لأنهم يستخدمون أساليب أكاديمية، واجتماعية، وروحانية لتعليم الطفل

المتكامل. ونحن نقترح بنية دور جديدة للمعلمين التحويليين للمساعدة على إنشاء توازن بين متطلبات التعليم المعلوماتي مقابل التعليم التحويلي. ولبنية الدور هذه ثلاثة أوجه، كما هو مبيّن في الشكل 1.2: عالِم ومُمارِس ومُتعاطِف (مُتفهِّم) . ويسمّى المعلم الذي لديه قناعة بأنه متمكّن جدّاً من تخصصه العلّامة أو الخبير، أما المعلمون الذين يتخصصون في المنهجية التي تشرك الطلاب فيُسمّون مدرسين، أو باللغة المعاصرة، ممارسين. ولكن ماذا نسمي المعلمين الذين لديهم فهم دائم واهتمام عميق تجاه من يعلّمونهم؟ يبدو أنّ هناك كثيراً من الصفات، مثل: الحساس، والراعي، والمتعاطف، وحتى المؤهل ثقافيّاً. ونحن نقترح اسم المتعاطفِين أو المتفهِّمين relaters لوصف المعلمين الذين يرعون العلاقة التربوية، ويهتمون بالطباع الأساسية لطلابهم بأنهم أشخاص، وبإمكاناتهم البشرية.

المعلم التحويلي

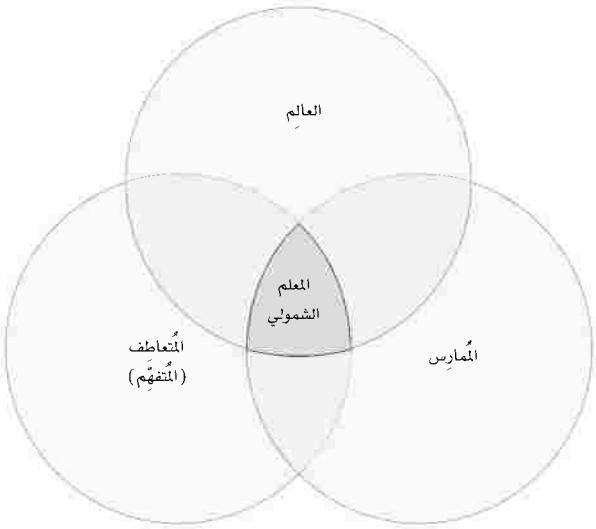

الشكل 1.2

إنّ التعليم العظيم كان على هذا النحو دائماً. ولهذا، فإنّ ثالوث الأدوار الذي يقوم به المعلم التحويلي يجب أن يوجّه إلى الطالب المتكامل. ونحن نجد المعلم التحويلي حيث توجد مساحة التداخل الصغيرة. وهناك دلالة مهمة لصغر المساحة؛ لأنّ من غير المألوف أن نجد معلمين شموليين يؤدون أدوار العالِم والممارِس والمتعاطِف أو المتفهِّم، إذ يمكن لكلّ دور أن يكمل الأدوار الأخرى. ولكن لسوء حظ الطلاب، غالباً ما يمارس المعلمون دوراً أو دورين فقط في أثناء عملية التدريس.

المعلم - الباحث العالِم

لنكن صريحين مع أنفسنا، لو قارنّا الباحث أو العالِم بالمعلم، فإنه يبدو من المهم جدّاً أكثر من أيّ وقت مضى، أن يكون المعلمون على معرفة وإلمام بشيء ما. نقول ذلك؛ لأنّ هناك بعض المعلمين الذين انفصلوا تماماً عن عالم المعرفة، أو الذين أرهقتهم الحياة الأكاديمية إلى حدّ أنهم تعهدوا بألّا يقرؤوا أيّ كتاب بتاتاً، ربما باستثناء قراءة بعض القصص الخيالية التي لا معنى لها وهم جالسون على الشاطئ. هؤلاء المعلمون يفشلون بأسوأ طريقة في التخطيط لتعليم مستدام لطلابهم، إذ يعرف كلُّ ولـيّ أمرٍ، ومعلمٍ، وطالبٍ، معلماً ما يقوم فقط بما يكفي ليتدبر أمره في مجال المحتوى. ولا شكّ في أنّ مثل هذا المعلم يُعدُّ مفسدة للتعليم.

وفي المقابل، فإنّ الصورة التقليدية للعالِم تبدو بائسة، حيث يتعيّن على الذين يُدرِّسون نشر كتاباتهم على نطاق واسع، وهو أمر لا يتسنى لكثيرين منهم. ولكن، مع أنّ معظم المعلمين لا يملكون الوقت الكافي للكتابة كثيراً، فإنهم يستطيعون إيجاد وقت للقراءة والتفكير. وهناك كثير من المعلمين الذين يشاركون في كتابة مقالات في الصحف الإخبارية المتخصصة وغيرها من الدوريات، ومنها المدونات الإلكترونية، في حين يوافق آخرون على إلقاء محاضرات محليّاً وإقليميّاً ووطنيّاً.

إنّ الوصـول إلى ثقـة كبيرة في الموضـوع الدراسي يتطلب عمـلاً شاقّاً. صحيـح أنّ العقل البشري قـادر على إعادة الاكتشـاف والتجديد، لكن التفاني فـي مهمـة التعليم، بل عشقها، أمـر أساسي. هناك مقولة تشيـر إلى أنّ أفضل المعلمين هـم أيضاً أفضل المُتعلمين؛ فالعلمـاء والباحثون لديهم فضول تجاه عالـم الأفكار- وهم محبـون لموضوعهم أو مجالهم المعرفـي. وينبع الحماس للموضوع الدراسي عادة من معرفة الموضوع بمستويات أعمق وأوسع من الفهم، وهذا الحماس ينتقل إلى الطلاب اجتماعيّاً وروحيّاً.

لسـوء الحظ، كلّنا يعـرف معلمين على اطلاع واسـع بموضوعهم، لكنهم لا يستطيعـون تدريسه. ويعتقد هذا النـوع من المعلمين أنّ التدريس يشبه إلقاء محاضرة، ولا يفهم بتاتاً سبب عدم استيعاب الطلاب. في أحيان كثيرة، يمارس المعلمـون مهنتهم آليّاً، معتمدين على أساليـب التدريس التي يعرفونها لتحقيق النجـاح. وقد يجـد المعلمـون أنفسهم يتصرفـون بطريقة ردّ فعـل ارتكاسية؛ لأن طلابهـم يظهرون في الأغلـب قلقاً مجتمعيّاً. ومع عـدم تبنينا للفكرة، فإنّ المربيـن في المدارس الحكومية الأمريكية جزء من ثقافـة مقموعة لا تحظى بالتقدير اللازم. ومع ذلك، نتوقع منهم أن يستوعبوا، ليس فقط انتباه الأطفال المشتـت، بل استيعاب فشل أوليـاء الأمور والمجتمع من أجل نمذجة الانضباط الذاتي الأخلاقي.

ومـن ناحية أخرى، يمكن للمعلمين والمدارس أيضاً أن يفصلوا أنفسهم عـن المجتمـع بـدل مواجهـة المشـكلات، والسعـي إلـى جعل طلابهـم جزءاً مـن العملية التربويـة. ولأنّ ردّ الفعل يطغـى على المبادرة لـدى عدد كبير من المعلمين، تبدو المعرفة أقلّ أهمية من العثور على أساليب للنجاح، وبخاصة مع اقتـراب موعد اختبار التحصيل. وهنـا يبرز دور الممارس إلى الصدارة، وهذا ما سنناقشه لاحقاً.

المعلم - الممارِس

المعلمـون الممارسون هـم الذين يشركون طلابهـم. ويمارسون، بمنتهى الخبرة، علـم التعليم وفنّه يوميّـاً. والذين يستكشفون بصـورة طبيعيّة تشكيلة منوعـة من أساليب التدريس داخـل صفوفهم. والمعلم- الممارِس هو من يفكر دوماً في طرائق جديدة لإيصـال المحتوى إلى الطلاب الذين تحفزهم طرائق معلمهم المشاركة في النقاش. إنّ أفضل الممارسين لا يقدمون الوجبة المعتادة المكونة من ثلاثة أصناف، بل مائدة شهية من الأساليب لعرض موضوعهم.

المعلمـون- الممارسون، يعرفـون موضوعهم على أفضـل وجه، ويعرفون كيف يتعلم طلابهم. ولذلك، فإنّ معلمي المرحلة التمهيدية وحتى الصف الثاني عشـر، الذين اختـاروا أن يكونوا مطلعين (علماء) بقدر مـا هم عمليون داخل صفوفهم الدراسية، يجب الاعتراف بهم بأنهم ممارِسون. إنّ أساليب التدريس تأتـي من المعرفـة والبحث في مجـال المحتـوى، وكذلك من التعلّـم والتنمية البشريـة. والمعلمـون المبدعون لم ينشـؤوا من فراغ، وهذا هـو السبب في أنّ تدريـب المعلمين وتثقيفهم قبل الخدمة وفي أثنائهـا يؤكد المعرفة بالمحتوى، وعلـم النفس التربـوي، وأساليب التدريـس. إنّ معرفةَ مَن هـم الذين نُعلِّمهم، وكيف يمكننا التواصل معهم مزيجٌ معقدٌ، يتطلب المعرفةَ والخبرة أيضاً.

يجـب أن تسيـر المعرفة وأساليب التدريس جنباً إلـى جنب؛ لأنّ أحدهما يؤثـر فـي الآخر بكلّ تأكيـد. أي إنّ أساليب التدريس الجيـدة يضعف أثرها في غيـاب المعرفة. وعليه، يجـب على المعلميـن أن يكونوا مطلعيـن على الدوام. وخلاصـة القول: إنّ الموضـوع الدراسي هو الذي يجـذب الطالب، والمعلم هو وسيلـة لتحويل المحتـوى إليه. لذا، فـإنّ المعلمين الذين يحققـون هدفهم في تحويـل الطلاب، يعرفون موضوعهم الدراسـي جيداً، ويجدون متعة في تدريس الطـلاب عبر مجموعـة منوعة مـن الإستراتيجيّات. في نهايـة المطاف، تظل القيمة التربوية في غرفة الصف هي إشراك الطلاب في النقاشات الدائرة.

اعرف نفسك

علينا إدراك حقيقة أن التدريس شيء فرديّ تماماً مثل التعلُّم. يذكِّرنا باركر بالمر (1998) Parker Palmer أننا نُعلِّم ما نحن عليه (ص.2) ، لكن الشخصية القوية يمكن أن تتحول بسهولة إلى جنون العظمة. فما الأقوى لديك، أهي معرفة مادتك أم إبداعك في المنهجية؟ لا ضير أن يكون الجواب هذا أو ذاك، ولكن على معظمنا أن يحدد نقطة الضعف ويعمل على علاجها، وربما كان أهم مفهوم في التعليم هو نصيحة سقراط الخالدة: (اعرف نفسك).

إنّ أحد التعميمات التي تحمل شيئاً من الدقة هي أنّ معلمي المرحلة الابتدائية يميلون بصورة كبيرة إلى دور الممارس، فيما يتطابق معلمو المرحلة الثانوية أكثر مع دور العالِم. فإذا كان معلمو المرحلة من التمهيدي إلى الصف الثاني عشر يريدون الحصول على التقدير المناسب في الولايات المتحدة، فإنّ عليهم أن يجسدوا كلا الدورين في المرحلتين. ولا يكفي أن يقوم المعلم بتمثيل المعرفة على أصول التدريس (والبيداغوجيا) ؛ فالمدرسون المعلوماتيون يقومون بهذا، بل يجب أن يفعلوا أكثر من ذلك، وهذه ميزة ثالثة يجسِّدها المعلمون التحويليون؛ إنهم يهتمون بكيفية التواصل مع طلابهم بصفتهم أفراداً.

المعلم - المتعاطِف (المُتفهِّم)

نستخدم مصطلح المتعاطفِين أو المتفهِّمين لرغبتنا في تأكيد على أهمية العلاقة التربوية بين المعلمين والطلاب؛ فالمعلمون المتفهِّمون يحققون كلّاً من الأهداف الاجتماعية والروحانية في التعليم، ولديهم غايات أكبر في أدوارهم التعليمية؛ لأنهم ملتزمون بالاستماع إلى الهوية الحقيقية لطلابهم والاستجابة لها. ويمارس المعلمون المتفهمون شكلاً من أشكال الحنان، هو الحبّ عمليّاً. إضافة إلى أنهم واعون تماماً للمنهاج الدراسي، وكيفية تلبيته الأهداف: الأكاديمية، والاجتماعية، والروحانية.

هنـاك حاجة إلى مثل هذه الحساسية بصورة خاصة بين معلمي الطلاب الذيـن هم فـي مرحلة المراهقـة. وكما يذكرنـا توماس آرمسترونج (2007) Thomas Armstrong، فـإنّ النمـو التَّطـوُّري فـي بداية هـذه المرحلة يفسح المجـال أمام اكتساب قدرة إدراكية جديـدة. وهذه القدرة لا تساعد على النمو الأكاديمـي فحسب، بل أيضاً على المشاركة في العالـم الحقيقي خارج الصف الدراسي واستكشافه. إنّ الدراسة ليست سباقاً نحو القمة؛ إنها رحلة للطلاب. إنّهـم يستطيعـون، بمساعدة المعلمين والمدارس، تطويـر شعور بالاستقلالية، فيما هم يعدّون أنفسهم لحياة ما بعد المدرسة.

فـي المرحلة الأساسية، يحتاج الطلاب إلى معلمين متعاطفين ومتفهمين لأسباب مختلفة. ففي أثناء التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، يبدو أنّ مدارسنا تتناسـى الطاقة الكلية للّعب، وتولي اهتمامهـا بالتحصيل الأكاديمي. وعلينا أن نتذكـر أنّ الأطفال لا يستطيعون تعلم العمليـات الأساسية للرياضيات والقراءة حتى يصبحوا مستعدين فكرياً. وهذا يظهر عادة ما بين السادسة والسابعة من العمـر. ولذلك، فـإنّ الضغط على الأطفال الصغار لتعلّـم هذه المهارات يمكن أن يـؤدي إلى إنشاء حواجز عاطفية ومعرفية أمام الطلاب الضعاف. ويستطيع المعلمـون الأذكيـاء، الذين يوفرون بيئـة مساعدة ومتعـددة الحواس، وهي ما يسميها فريدريك فروبل Friedrich Froebel (حديقة للأطفال) - أن يحفزوا عملية القراءة والكتابة الوليدة إلى جانب فهم تصوّري لمادة الرياضيات.

لسـوء الحظ، يبـدو أنّ كثيـراً مـن المعلمين غيـر معنيين بالـدور الثالث للمعلـم المتعاطف والمتفهـم، أو أنهم غير مهتمين به إلى حـدّ تخصيص بعض الوقـت لتطويره (أو كليهما) . غالباً ما يتوقـف التشديد على العلاقة بين المعلم والطالـب داخل غرفـة الصف بسبب الخـوف من احتمال إثارة صـراع قد يكون كامناً تحت سطح أفـكار الطلاب ومشاعرهم. لكن الطلاب الذين يحتاجون إلى

معلـم يرعاهم، هم غالباً أولئك الأكثر نجاحاً فـي إخفاء ذلك الصراع. ويحدث الأمـر ذاته مع أوليـاء الأمـور (Weissbourd, 2009) ، وبالتحديـد مَن هم مِن ذوي الدخـل المنخفض، الذين غالباً مـا يرتابون في المدارس والمعلمين، وربما يفتقرون إلى مهارات الدفاع المطلوبة ليكونوا قادرين على التواصل بصورة فاعلة.

إن ضيـق الوقت يـؤدي أيضاً إلى قمـع دور المعلم المتعاطـف والمتفهم. فكثير من المعلمين، كمـا ذكرنا، يبالغون في تشعب الأنشطة، ويعتادون تحقيق مزيـد من الأولويات الموضوعية إلى حدّ إقناع أنفسهم أن تعزيز العلاقات ليس من مهمتهم.

الذكاء المتعدد للمعلمين

يقول هوارد جاردنر Howard Gardner: إننا جميعا نملك ذكاء متعدداً (نقاط قوة) ، يبدو أنه يأتي طبيعيّاً، ونقاط ضعف يجب علينا تحديدها ومعالجتها. أما المعلمون، فلا شك أنّ تعدّد الـذكاء الشخصي (مهارات الأفراد) وتعدّد الذكاء الاجتماعي (مهارات الاستقراء) ضروريان لإحراز النجاح التدريسي. ولكن من الصعب العثور على هاتين القدرتين متطورتين كثيراً في شخص أو معلم بعينه. فهـل نستطيع تطوير أنواع الذكاء التـي نفتقر إليها؟ هل يمكننا أن نغير التصرف أو الاتجـاه في أنفسنا؟ يبدو أنّ العامـل الوحيد أمامنا هو الإرادة البشرية.

على أيّ حال، يواجه دور المعلم المتعاطف في حدّ ذاته تحديات ومتحدين؛ فكثيـر من وزارات التعليم في الولايات الأمريكيـة تنشر تقارير مدرسية سنوية عن المدارس والمناطق التعليمية، تصنف فيها المدارس إلى ناجحة أو فاشلة. وفعـلاً ، فإننا عندما نستعرض الدرجات لمادة دراسيـة في المدارس المحلية، فلمـاذا نهتـم إن كان المعلم يتفهم الطالب في مدرسـة فاشلة؟ لقد وصل عدم

الاهتمام الرسمي بالعلاقة بين الطالب والمعلم إلى حدّ أنّ إحدى فِكَر الإصلاح الرائجة تدعو إلى ربط راتب المعلم بدرجات امتحانات الطالب. من المؤكد تقريباً أنّ الولايات الأمريكية ستوافق على هذه الفكرة؛ لأنّ التمويل الاتحاديّ (الفيدرالي) للتعليم في وضع حرج. فما دامت أنّ درجات الاختبارات في صعود، فلن يهتم أحد بمناقشة القضايا الأكثر إنسانية في التعليم. وتبعاً لذلك، سوف يرد المدافعون عن هذه الفكرة بالقول: ما العيب في هذا النوع من التحصيل؟

إنّ هذا التصور منتشر على نطاق واسع، ويشبه كثيراً التقرير السنوي للشركات أو المساهمين، إذ يحكم المستثمرون على نجاح شركاتهم من خلال الأرقام. لكن مثل هذا التفكير التجاري لا يصلح للتطبيق في التعليم الكامل لأطفالنا. هناك -بلا ريب- تصورات أنّ من يقودون مدارسنا يمكنهم أن يتعلموا من الرؤساء التنفيذيين الناجحين أموراً معيّنة، كالتخطيط المستقبلي، وبيان خطوط العمل الأخلاقية. مثلاً، تحرص بعض أعرق الشركات أولاً على الخدمة الشاملة المقدمة لزبائنها، ومن ثم تتوقع أن يستفيد المساهمون تلقائيّاً. ومع ذلك، فإنّ عقلية الربح والخسارة، أو أيّ شكل من الالتزام المقتصر على نظام عقديّ (أيديولوجي) تعليمي، لا ينبئ بخير لمصلحة الطلاب أكاديميّاً واجتماعيّاً وروحيّاً. ولذلك، هناك حاجة إلى الانفتاح على الأفكار وأفضل الممارسات؛ لإثراء الطاقة الإنسانية لدى طلابنا، ويمكن العثور على هذا الانفتاح في قلب الإنسان.

قلب التعليم

إنّ القلب أو الروح والمشاعر هو ما يمتلكه المعلمون- المتفهمون. إنّها القضية الحقيقية، لكنها غالباً مخفية في النقاشات المعاصرة عن كيفية تأثير الفقر في الطلاب والتعلُّم في المدارس. يجسد المعلم- المتفهم التعاطف

والشجاعـة والتصميم على عدم التخلي عن طلابـه. وهذه مسألة مهمة بعد أن احتلت الأهـداف المادية الأكاديمية في المدارس الأمريكية الصدارة، ما جعل الأهـداف الاجتماعية في وضع لا تُحسد عليه. والأسوأ من هذا هو أنّ الأهداف الروحانيـة قـد أصبحـت منفصلـة عما كان يعـدُّ اجتماعيّـاً فـي التعليم. وفي الواقـع، يبدو كأن القطاع العـام أصبح يخشى (تفضيل الأخلاقي على التقني) و(الأشخاص على الأشيـاء) (Weigel, p.31 , 2006) . وقد أدّى هذا الخوف إلى بيئات أكاديمية تزيد من عزلة الطلاب.

الفقر وروح التعليم

نشأ كثير مـن الأشخاص الناجحين وهـم فقراء، لكنهم كانـوا قادرين على الوصول إلى أنظمة الدعم؛ أبراهام لينكولن أحد الأمثلة على هؤلاء الأشخاص. ويعدّ الفقر مسألة روحية أكثر من كونها مسألة مادية، فالدعم الأبوي الهزيل والدعم المدرسـي الضعيف يمكـن أن يكونا مُدمِّرَيْن. مـن المناطق الفقيرة، يكتشف الطلاب أنهم كلما قطعوا شوطاً أبعد، أصبحوا متراجعين أكثر. ومثال ذلك أنّ الطلاب الفقراء في الصف الرابع يكونون عادة متأخرين عن أقرانهم الميسورين بثلاثة مستويات دراسية، إضافة إلـى أنّ نصف هؤلاء الطلاب لا يجتازون المرحلة الثانوية. ولذلك، تحتاج المدارس إلى إدراك أنّ مجتمعاتها يجب أن تكون عائلة واحدة، ولاسيّما للطلاب المحرومين.

إنّ المدارس التي تعلّم من أجل مقاييس موحدة، دون أن تأخذ في الحسبان مـا هو جدير بالاهتمام فعلاً فـي حياة الأطفال بصفتهم أفراداً، تؤذي الطلاب والمجتمع على وجه مأساويّ. ويكون المعلمون متفهمين عندما: يهتمون بالحيوية والنشـاط (بالديناميكية) بين المعلم والطالـب، ويمثلون سلطة القيم العائلية واحتـرام الطالب في الوقت نفسه، ويلتزمون بفكـرة أنّ التعليم والحياة بأعمق

مستوياتهما مترابطان، ويوظفون أنفسهم في نموذج تعليمي يتضمن أهدافاً روحية. منذ زمن طويل، اتفق المربّون على أنّ نمذجة القيم أفضل من تعليمها دراسيّاً. اجتماعيّاً، نلاحظ أنّ المربين ملتزمون بقيمة العلاقات في التعليم والحياة. ولكن، هل ندرك أنّ الكيفية التي ننظر بها إلى البشر لها أثر كذلك؟

الاختبارات المصيرية والخوف

يبدو أنّ المدارس الحكومية الأمريكية تسير على قرع طبول الخوف، ذلك الشعور الذي يحسّ به كلّ إنسان. ومن المؤكد أنّ هاجس المساءلة يزيد من هذا الخوف في المدارس ولدى المعلمين. قبل أسابيع على تقديم الاختبارات المقننة، تُؤجّلُ الأنشطة الإضافية في كثير من مدارس الولايات المتحدة. وتشمل هذه الأنشطة الإضافية: العطل، والرحلات الميدانية، والدراسات الاجتماعية، ودروس العلوم. وخلال هذه الأسابيع، يمضي الطلاب ساعات في الاستعداد المرهق للامتحان عبر حلّ الأسئلة المكرّرة وحفظها عن ظهر قلب. أخبرتنا إحدى المعلمات أنّ هذه البيئة تلغي جوهر عملها بصفتها معلمة. هناك كثير من المعلمين لا يشعرون بأنهم يحظون بالثقة لأداء أدوارهم الاحترافية، إذ إنهم يخافون من فقدان وظائفهم إذا قاموا بالمجازفة بإعطاء مدة استراحة أو استخدام التعليم التجريبي مثلاً. ومع ذلك، فإنّ الأوقات الراهنة تقتضي أن يقف قلب المعلم - المتفهم المتصف بالشجاعة إلى جانب الطفل المتكامل.

يبدو أنّ التعليم يستوعب التأثيرات اليومية للاختلالات المجتمعية أكثر من أيّ مهنة أخرى؛ فمعلمو المدارس الحكومية غالباً ما يكونون كبش فداء لإخفاقات الطلاب، مع أنهم يتحكمون في القليل من المتغيرات التي تؤثر في قدرة الطالب على التعلُّم. ونحن نُقرّ أنّ الإرهاق الشديد الذي يصيب المعلم أمر حقيقي؛ فَنصِفُ المعلمين الجدد في الولايات المتحدة يتركون المهنة في

السنوات الخمس الأولى من التحاقهم بها. وإنّ المعلمين المتمرسين يتساءلون عـن أسباب بقائهم في التعليم حتـى الآن. وتظهر بعض الدراسات أنّ 40% من مجموع المعلمين محبطون بسبب عملهم (2009) Yarrow. في حين تقدّر إحدى الدراسات (2001) Marzano, Pickering & Pollock أنّ ما يتحكم فيه المعلم من متغيرات الإستراتيجيّات التعليمية، وتخطيط المنهاج، وإدارة غرفة الصف، يكـوّن فقط ما نسبته 13% من حجم التغيير في أداء الطالب. وبهذه المناسبة، نود التذكير بحقيقة عرفها المربّون دوماً، هي: التعليم الناجح ينبع من الداخل!

الحساسية والاحترام

إنّ صعوبة التعامل مع الطلاب نابعة مـن نظرتنا إلى التعليم بأنه خدمة لهم بصفتهم أفراداً. لقد قضت معلمة مادة الأحياء لمايكل أوهر بطل فيلم (الجانب المعتم) The Blind Side عام 2009، وقتاً في معرفة مايكل، والطريقة التي كان يتعلم من خلالها. بعد ذلك، أقنعت بعض زملائها أن يفعلوا الشيء ذاته. ومن الثابت أنّ تحفيز الطلاب كي يؤمنوا بأنفسهم وأن يتميزوا، يبدأ مع المعلمين الشموليين. وتقول فيرنا برايس (2006) Verna Cornelia Price: عندما يثق الطلاب في أن المعلم ينظر إليهم حقّاً بأنهم على قدر كبير من الأهمية، وذوو قيمة، وأذكياء، فإنهم يبدؤون بإظهار الاحترام والتعلُّم من ذلك المعلم، بغض النظر عن لونه. (صـ. 126) . أي إنّ الطلاب يحتاجون إلـى الثقة والتفهم والاحترام الذي يحمله المعلم الشمولي إلى غرفة الصف.

تعني الحساسية كيفية فهم البشر بعضهم بعضاً، ومن ثمّ كيفية فهم أنفسهم. إنها تتضمن معرفة عالم النِّيّات، والرغبات، والمعتقدات. ولهذا، تعدُّ القدرة على الإحساس بالتعاطف ميزة مهمة جدّاً للمعلمين، وضرورية للمعلم المتفهِّم. وإلا، فنحن نخذل طلابنا حينما لا نكون متفهمين لقيمهم وتجاربهم الثقافية.

إذا نظرنا إلى الطلاب بأنهم مجرد أوعية نملؤها بالمعرفة، وإذا عاملناهم بأنهم وسائل لغايات، مثل رفع نتائج الاختبارات، وإذا مارسنا (ألعاب المفاجأة) أو (امسك حرامي) عبر أساليب التعالي في التعليم؛ وإذا فشلنا في تجسيد القيم مثل: الاحترام، والنزاهة، والاجتهاد، والعدالة، واللطف، وإذا فشلنا في تقدير المعتقدات والممارسات الثقافية للمتعلمين- فإننا نكون مذنبين بتهمة تبني وجهة نظر غير مكتملة حيال البشر والتعليم ذاته.

إنّ ما يؤمن به المعلمون هو الذي يؤدي إلى التقدم. عندما يؤمن المعلمون المتفهِّمون بالأهداف الروحانية، يكون لهذا أثر ملموس في الممارسة. ويتناقض التفهم الروحاني للطلاب مع ثقافة الذين يشدِّدون على التنافس والتحصيل، أو الذين يخشون الأهداف الروحانية. لكن الافتقار إلى نظام تعليمي يتسم بالثقة، يمكن أن يؤدي إلى فقداننا الثقة بالطلاب أنفسهم.

المتفهمون: الثقة بقدرات الطلاب

كتب بابلو كاسالز Pablo Casals، قائد الفرقة الموسيقية (الأوركسترا) وعازف التشيلو الإسباني الشهير، مرة عن معجزة التفرد الإنساني في كتابه **الأفراح والأحزان** (1970) Joys and Sorrows، قائلاً: عبر ملايين السنين التي مرت، لم يكن هناك مطلقاً طفل آخر يشبهك تماماً. يمكن أن تصبح مثل شكسبير، أو مايكل أنجلو، أو بيتهوفن. إنّك تملك القدرة لفعل أيّ شيء. ومن هذا المنظور، يعرف المعلمون المتفهمون أنّ طلابهم يبحثون؛ للعثور على معنى وهدف لحياتهم، ويرغبون في العثور عليه عبر الفرص المتاحة للمشاركة في عالمهم.

ومن خلال المعلمين الواعين لأفضل الميزات في طلابهم، يمكن تحقيق الأهداف الروحانية في المدارس الحكومية. ولا يتطلب الإيمان بطلابنا بالضرورة إقناعاً دينيّاً، ولكنه يعني أنّ بإمكان المعلمين النظر إلى طلابهم

بأنهم كنوز مميزة غير محدودة بزمن. في كتاب (**الجمهورية**)، أدرك أفلاطون هـذه الحقيقـة قبل آلاف السنين عندمـا قال: (روح الإنسـان خالدة لا تفنى). ونحـن لا نُعلِّـم العقل فقط، بل الـروح البشريـة أيضاً؛ الجوهر الـذي لا يمكن إتلافه. أيضاً، كتب دالاس ويلارد (1994) Dallas Willard، : «الروحانية هي ما نحن عليه أصلاً، وليس أمراً علينا أن نسعى جاهدين لتحقيقه».

> «ويبدو الجزم أن الروح البشرية يمكن أن تسمو على ما هو دنيوي قد ينطوي على مخاطرة فكرية لبعض العلماء. فقد وصف هـاورد جاردنر (1999) Howard Gardner، في نظريته المتعلقة بتعدّد الذكاء، الإدراك البشري للروحاني بأنه ذكاء وجوديّ. لقد وجد، عندما طبّق علم النفس، أنّ الروحانية البشرية أقل إثارة للجدل، وبخاصة فيما يتعلق بمثل هذه الصفات الوجودية للحالة الإنسانية، مثل أهمية الحياة، ومعنى الموت، والمصير النهائي للعالمين المادي والنفسي، والخبرات العميقة كحب إنسان آخر، أو الانغماس الكلي في عمل فني.» (ص. 60)

مما سبق، يمكننا استنتاج أنّ تصور جاردنر للروحانية واسع وآمن. ونحن معجبـون بالتشديد على الجوانب العلائقية للروحانيـة. إنّ الثقة بطلابنا تعني الثقـة بقدرتهم على النجاح، وأنّ بالإمـكان رعايتهم على نحو متكامل؛ لتحقيق كامـل طاقاتهم. ولذلك، فـإنّ الأهداف الأكاديمية ضروريـة دائماً في التعليم. ونأمل أن نوضح أكثر السبب في أنّ الإيمان بأرواح الطلاب غير القابلة للتدمير والتخريب هو أمر حيوي كذلك. إنّ خدمة شيء ما، أو شخص ما غير أنفسهم، يُعـدُّ أكثر من رغبة بالنسبـة إلى الطلاب؛ لأنه يوجد في جوهر كلّ إنسان إيمان وحاجـة إلى العمل والالتزام في حياته. وضمـن هذا السياق، يستطيع المعلمون التحويليون أن يتبنّوا المفهوم الذي يشير إلى أنّ خدمة الآخرين تساعد الطلاب في النهاية على فهم أنفسهم وفهم الآخرين. وعندما يتطلع الطلاب إلى خدمة غيرهم، يمكنهم العودة إلى نفوسهم للتعمق في تعلّمهم.

ترياق لمدارس القرن الحادي والعشرين

إنّ تعزيز قيمة القدرة الكلية للطلاب قد يؤدي إلى مزيد من المفاهيم المُقنعة في التدريس. لم يكن التعليم بوصفه تحويلياً شمولياً من ابتكار أيّ من المفكرين الدينيين المسيحيين. ويؤكد ويلارد (1998) D.Willard أنّ هدف المعلم قديماً قبل المسيح لم يكن نقل المعلومات، وإنما إحداث تغيير جوهريّ في حياة المستمعين. ويلاحظ أنّ جعل الناس يعرفون أموراً قد لا يكون لها تأثير في حياتهم هو فكرة حديثة:

> «في وقتنا الحاضر، عادة ما يرى الطلاب أنفسهم نوعاً من الأوعية ذات فراغات يجب ملؤها بالمعلومات التي يملكها المعلم ويرغب في نقلها؛ (من الإبريق إلى الكوب). هنا يأتي دور المعلم الذي يملأ الأجزاء الفارغة من الإناء بالحقيقة التي قد تُحدث فيما بعد، أو لا تُحدث، فرقاً في حياة من يتلقاها، ولكن عليه إدخال المعلومات في عقولهم. بعد ذلك، تفحص المرضى لرؤية إن كانوا أصيبوا بها من خلال التحقق فيما إذا كانوا يستطيعون إعادة إنتاج تلك الحقيقة لغوياً بدلاً من ملاحظة كيف يعيشون حياتهم.» (ص ص. 112 – 113)

وعليه، يمكن أن نرى في التعليم التحويلي ترياقاً لعلاج هذا الحرص المكثف على التدريس المعلوماتي في التعليم الحديث.

تحوّل اليرقة

يعدّ نموذج (من الإبريق إلى الكوب)، أو التدريس القائم على التلقين حيث المعلم يتكلم والطلاب يصغون، تدريساً معلوماتياً. وعلى الرغم من أنّ الأدلة الموضوعية كلّها التي تثبت النقيض خلال القرن الماضي، فإنّ هذا النموذج من أساليب التدريس لا يزال موجوداً بصورة أو بأخرى. ربما نكون قد أخذنا المفهوم الخطأ من الطبيعة، حيث اخترنا الفعل الأبسط للأميبيا التي

تقـوم بالتمثيل الغذائي، بـدل المفهوم الأكثر تعقيداً لتحـوّل اليرقة إلى فراشة جميلة. إنّ التعلُّم معقّد وجميل، فدعونا نتقبله على هذا النحو.

الشاعـر الإيرلندي ويليـام بتلر ييتـس (William Butler Yeats (1865 1939 –: التعليـم ليـس عملية ملء دلو، بـل إشعال نار. مـن المفارقة أن يكون أحد الأشيـاء التي نعانيها في نظامنا التعليمي هـو الحذف المتعمد للمعلومات المرتبطـة بالاحتياجـات الحقيقية للطـلاب. قد يفعل دعـاة مذهب الجوهرية ذلـك باسم العودة إلى الأساسيات، فيما هـم يستأصلون العلوم الإنسانية؛ وقد يفعـل المربّون التصحيحيون ذلك باسـم إزالة الأفكار الخلافية التي قد تسيء إلـى أقلية أو جماعة ضغط وتأثير في القرارات. وقد يقوم التقدميون بذلك من خـلال إهمال اللغة التي قد تسلط الضوء على حقيقة القيم التقليدية. المعلمون الشاملون يمكن لهم معالجة العلل في نظامنا التعليمي بإثارة الفضول في نفوس الطلاب، ضمن بيئة داعمة وحاضنـة حيث يمكن مناقشة الموضوعات المثيرة للجدل. بصفتنا معلمين، يجب ألا نخاف من المعلومات، ولكن علينا الخوف من أولئـك الذيـن يمكن أن يحذفوها، أو أولئك الذيـن يعدونها غاية في حدّ ذاتها. فـإذا كان الحال على هـذا النحو، فكيف نُعلِّم طلابنا التفكير في أنفسهم طوال حياتهـم إذا لم يُسمح لهم بالوصـول إلى أفكار يمكن لهم تدارسها، أو تحليلها، أو تقويمها، أو تبنيها، أو طرحها كليّاً أو جزئيّاً؟

أحيانـاً، تـدق الساعة معلنـة انتهاء صلاحيـة المعلومات قبـل أن نتمكن نحـن المعلمين من تقديمها، أو قبل أن يتمكن الطلاب من تحويلها إلى معرفة، ولاسيّمـا إذا كانـت المعلومـات منفصلـة عن الخبـرات الشخصيـة والفردية للطلاب. المعلمون الشاملون الذيـن يدمجون الأهداف الاجتماعية والروحانية مـع الأكاديميـة سينجحون أكثر فـي إيجاد طلاب متعلمين مـدى الحياة. نحن نتذكـر المعرفة عندما تكون شخصيـة، وتكون المعرفة شخصية عندما تتحقق

الأهداف المتكاملة على أيدي المعلمين المتكاملين. يؤكد ديفيد دوكري (2008) David S. Dockery أنّ المعرفة كلّها تبقى نظرية في غياب الشعور بالقدسية. لسوء الحظ، نحن نعيش في عالم تربوي نظري بصورة متزايدة، حيث التطور الاجتماعي والروحاني غالباً ما يُحذف من خبرات التعلُّم المخصوصة بالطلاب.

في القرن الواحد والعشرين، يتسارع التقدم والابتكارات بصورة مذهلة، وهو غالباً أسرع مما لا يمكن لأكثرنا ذكاء استيعابه أو اللحاق به. ولذلك، يبدو المعلمون، بصفتهم مربّين، فصيلة مهددة بالانقراض في هذا العالم سريع التغير. ولذلك، ربما يتعيّن علينا جميعاً التوقف والتأمل فيما يهم حقّاً في عملية التعلّم حتى لا يضيع قلب المعلم وروحه عند بوابة المدرسة.

لقد طرحنا في بداية هذا الفصل السؤال: لماذا نُعلِّم؟ وهذا السؤال، من بين أمور أخرى، يتعلق بزيادة إثراء التعليم. ونحن لا يمكن أن نسأل عن سبب ممارستنا للتعليم دون أن نسأل عن هوية مَن نُعلِّم. ولكي ننمي الطاقات الكامنة في طلبتنا، فإننا نحتاج إلى معلم متكامل.

أفكار ختامية

إنّ أحد أكثر الآراء التقليدية عن المعلم هي أنه شخص يعرف ويمارس. مثل هؤلاء المعلمين هم علماء – ممارسون. لكن نموذج غرفة الصف الذي يبدأ بالطالب، بدلاً من البدء بالمحتوى، له آثاره في دور المعلم. هذا الفصل يضيف دوراً ثالثاً هو المتعاطِف أو المتفهِّم، الذي يُوجِد ثالوثاً من الأدوار التي يؤديها المعلم التحويلي. إنه الدور الذي غالباً ما يتم تجاهله، أو نسيانه، أو إساءة فهمه، لكنه أيضاً الدور الذي غالباً ما ترك أكثر التأثيرات ثبوتاً في الطلاب ونجاحاتهم اللاحقة في الحياة. إنّ مثل هذا المعلم هو الذي يؤسس علاقات

تؤثـر في الطلاب على نحو كامل. ولا يُقاس دور المتفهِّم بالاختبارات المقننة؛ فأثره موجود في الجوانب الاجتماعية والروحانية في الحياة. ومن ثم، فهو يؤثر فـي التعليم الأكاديمي، فقط، بصورة غير مباشـرة. ومن شأن التقاء الأهداف التربويـة الروحانية مـع الدنيوية أن ينتج المفهوم الحيـوي لمهنة المعلمين، ما يضفي على التعليم معنى وهدفاً، ومن ثمَّ التأثير في حياة الطلاب.

❋ ❋ ❋